

الخطاب الأدبي في ظل الدراسات البنيوية

الطالب: الطيب بلباهي

جامعة أحمد بن بلة - وهران 01 (الجزائر)

ملخص المقال:

كان ظهور كتاب دوسوسير محاضرات في اللسانيات العامة (*Cours de linguistique Générale*) عام 1916م بمثابة المبعث لميلاد منهج جديد في النظر إلى اللغة والأدب في الغرب وهو ما اصطلح على تسميته بالمنهج البنيوي أو البنيوية. فما هي البنيوية؟ وكيف تم التعامل مع هذا المنهج في تحليل الأعمال الأدبية؟ وما علاقة الدراسات البنيوية بالرواية؟ هذا ما نحاول الإجابة عليه من خلال هذا المقال.

نص المقال:

لم يظهر المنهج البنيوي في الفكر الأدبي والنقدي وفي الدراسات الإنسانية فجأة ولم ينشأ من عدم وإنما كانت له إرهاصات عديدة منذ مطلع القرن العشرين. وقد تجسدت تلك الإرهاصات والبودار في "مجموعة من البيئات والمدارس والاتجاهات المتعددة والمتباينة مكانا وزمانا"⁽⁰¹⁾.

وكانت الدروس المقدمة من طرف العالم اللغوي السويسري دوسوسير هي البداية المنهجية للفكر البنيوي في اللغة وذلك عبر إطلاق مجموعة من الثنائيات المتقابلة أهمها اللغة والكلام، الدال والمدلول، المحور التاريخي والمحور الزمني، وغيرها من المصطلحات اللسانية .

ميز دوسوسير بين "مجموعة القواعد والمبادئ المتصلة بلغة ما، والتي تعمل في ذهن الجماعة، وتمثل النموذج المرجعي للغة وبين الممارسات الفعلية التي تبرز في أداء الأفراد وحديثهم اليومي والتي يطلق عليها الكلام"⁽⁰²⁾.

ويذهب الدكتور صلاح فضل إلى القول أن تصور دوسوسير للغة قريب جدا من التصور الذي يمكن أن نطلق عليه مصطلح **الأبنية اللغوية**، وإن لم يستخدم هذا المصطلح في كتاباته.

من الثنائيات التي أتى بها دوسوسير هي أنه ميز بين محورين مختلفين لدراسة اللغة وهما: محور تاريخي تطوري ومحور تزامني وصفي؛ فال محور التاريخي التطوري يركز على دراسة الظواهر في مسارها

وصيرورتها عبر الزمن، أما المحور الزمني الوصفي فيهتم بتحليل نظام هذه الظواهر اللغوية في لحظة زمنية معينة متجاهلاً تاريخها السابق. هذا، كما يميز دوسوسير بين علم اللغة الداخلي الذي يرتبط بدراسة القوانين المنبثقة من اللغة ذاتها بغض النظر عن الإطار الخارجي والعلاقات والظروف والبيئات والتي هي من اهتمامات علم اللغة الخارجي.

وقد ساهمت مدارس أخرى في إرساء مبادئ الفكر البنوي أهمها مدرسة الشكلاانيين الروس Les formalistes Russes التي تبلورت أفكارها خلال العشرينيات من القرن العشرين، والتي ركزت في مبادئها ومفاهيمها على أهمية دراسة الشكل الأدبي ودلالاته، وبذلك "كانت تحليلاتها لمفهوم الشكل قريبة جدا من مفهوم البنية"⁽⁰³⁾.

ولا غرو أن يكتب شك洛夫سكي في هذا الشأن بأن "مبدأ الاحساس بالشكل هو الصفة المميزة للإدراك الجمالي، والشكل هو عبارة عن تمامية (Intégrité) حيوية ملموسة ذات مضمون خاص تقوم بتوجيه إحساسنا - الذي عليه أن يطول - ليتسنى له التقاط أثر الفن ويفهم الفن على أنه وسيلة لتحطيم الآلة الإدراكية"⁽⁰⁴⁾، وبذلك يمكن التمييز بين لغتين مختلفتين هما: اللغة الشعرية واللغة اليومية.

وقد كان للناقد اللغوي رومان جاكبسون (Jakobson) الفضل الكبير في التعريف بجهود الشكلاانيين الروس كما كان له الأثر البارز في بلورة الأفكار البنيوية.

لقد ركز الشكلاانيون في نظريتهم على مقولة الشكل كرد فعل على التيار الرمزي الذي كان يبالغ كثيرا في التركيز على المعنى، وينفي الجوانب الشكلية للعمل الأدبي.

وكانت حلقة براغ 1928 أول من استعملت كلمة بنية (Structure) وكان نيقولا تروبتسكوي (1938-1890) (Trobestskov N) من أهم أعلام هذه الحلقة، والذي يعتبر مؤسس علم الفونولوجيا (Phonologie) أو علم الأصوات الحديث الذي يلتقي مع المنهج البنوي في التركيز على دراسة اللغة والاعتماد على المنهج العلمي في دراستها.

إلى جانب حلقة براغ، كانت هناك حلقة كوبنهاغن 1931 (Glossématique) والتي يعتبر كل من راندال (Randale) وودل (Wodell) و هلمسلف (Halmselev) من أبرز مؤسسيها.

يرى هلمسلف المنظر والناطق باسم هذه الحلقة اللسانية أن "الألسنية الحقيقية تولي بنية اللغة جملة اهتماماتها، وتساهم عبر تركيزها على البنية في تكوين العلوم الانسانية، فالنظرية اللغوية بنظرة، تتوسل تحليل البنية عن طريق اللجوء الى مبادئ شكلية"⁽⁰⁵⁾، وهذا يعني أن الموضوع الأساسي

للألسنية هو دراسة بنية اللغة وبذلك يكون هلمسلف من المكملين لجهود دي سوسير في مجال الألسنية البنيوية، ومن بين أهم مبادئ هذه المدرسة هو التأكيد على "ضرورة الكف عن دراسة أجزاء اللغة والاهتمام بدراسة العلاقات القائمة بين تلك الأجزاء" (06).

وتأتي أخيرا المدرسة الأمريكية ومن أشهر أعلامها بلومفيلد (Bloomfield) وشومسكي (Chomsky)، فقد حاول بلومفيلد إقامة لسانيات تصنيفية (Taxinomique) كتكملة للبنوية، ويتجلى ذلك في العمل المقدم من طرف أحد تلامذته وهو هاريس (Harris) في كتابه مناهج اللغويات البنيوية (1955)، أما شومسكي، فحاول أن يتجاوز البنيوية بنقده اتجاهات اللغويات البنيوية وذلك بإقامة "الألسنية توليدية تحويلية" (07).

يفسر شومسكي نقده للبنوية بأن نقطة الضعف في هذه الأخيرة هو "اقتصارها على الوصف (description) دون التفسير (Explication)" (08)، وقد أوضح جملة من التفسيرات في إطار جديد أسماه البنيوية التحويلية، وكانت من جملة تفسيراته ما يلي:

- يميز شومسكي بين الكفاية اللغوية (Compétence) والأداء الكلامي (Performance) الكفاية اللغوية هي المعرفة الضمنية لمتكلم اللغة المثالية والعارف بقوانين لغته و بين الأداء اللغوي أي طريقة استعماله للكفاية اللغوية بهدف التواصل.

- يميز أيضا بين البنية السطحية والبنية العميقة مبينا أن "البنية السطحية هي التي نتوصل إليها بواسطة إنتاج الكلمات التي نسوقها في تتابع أفقي والبنية العميقة أو الباطنية هي التي تعكس المنطق الداخلي للجمل اللغوية" (09).

- يعيب شومسكي على الألسنية البنيوية اهتمامها بدراسة اللغة ونفيها لذات المتكلم ودراستها المستوى السطحي للكلام وعدم غوصها في المستوى العميق، ويؤكد أن "المنهج الوصفي التطبيقي لا يفي بالهدف العلمي للدراسة الألسنية" (10).

بالرغم من أن شومسكي قام بنقد الألسنية البنيوية إلا أنه قد أحيها من جديد بحديثه عن انشطار وانقسام الجسم اللغوي إلى ثنائيات متعددة كاللغة والكلام، الكفاية اللغوية والأداء والبنية البسيطة والبنية العميقة، وهذا ما سمح "ببناء خطاب حول مجال اللغة" (11) في إطار ضيق ينفي العوامل التاريخية والاجتماعية التي قد تؤثر على اللغة، وبذلك تم حصر مجال الدراسة اللغوية في تحليل النسق الداخلي لها، وهو الأمر الذي أشار إليه دوسوسير باستعماله كلمة نسق والتي يقابلها مصطلح البنية الذي تم تثبيته في مؤتمر لاهاي سنة 1928م، حيث استعمله تروبتسكوي (N.Troubetskov) في تعريفه لمجال الفونام.

وفي هذا المنحى، يرى هلمسلف "أن اللغة تكون تنظيماً تتحدد فيه أجزاؤه بعلاقة تماسك، هذا التنظيم ينظم وحدات اللغة، بحيث تتحدد أجزاؤه بأولوية التنظيم بالنسبة إلى العناصر، ويحاول أن يكتشف بنية التنظيم من خلال علاقات العناصر في السياق الكلامي"⁽¹²⁾.

وللبنية علاقة أساسية بمفهومى النسق والعلاقات. فما هو النسق؟ وكيف نكشف عن هذه العلاقات؟

يرجع مفهوم النسق إلى الفلسفة اليونانية وخاصة إلى الرواقين الذين يعتقدون أن "كل ما في الكون محكوم بقانون عام، لذا فهم يعتبرون الكون نسقاً أو مجموعة من العلاقات المترابطة فيما بينها، وعليه فقد بحثوا عن العلاقة التي تربط بين نسق الأفكار ونسق الكون، قصد الكشف عن التناسق الأزلي"⁽¹³⁾. فالنسق يعبر عن عناصر وعلاقات متضامنة فيما بينها وعليه يمكن أن نعتبر البنيات الخطابية في الرواية محل الدراسة جزءاً من هذا النسق المتماسك.

فدراسة النسق تستلزم دراسة البنى التي يتشكل منها النص المدروس وهو ما يتوافق مع دراسة البنيات المكونة للخطاب الروائي في العمل الأدبي من أجل الكشف عن العلاقة بين هذه البنيات المكونة لجسده لأن مبدأ المنهج البنوي في دراسة الظواهر الاجتماعية هي قبل كل شيء "التحليل الواقعي للظواهر بغية اكتشاف العلاقات بين العناصر المكونة لهذه الظواهر"⁽¹⁴⁾.

ومن المبادئ التي جاء بها المنهج البنوي مبدأ المحايثة Principe d'immanence الذي يقتضي دراسة النسق اللغوي في ذاته من دون العودة إلى تاريخه ولا إلى علاقته بمحيطه"⁽¹⁵⁾.

إضافة إلى مبدأ المحايثة، هناك مبدأ السياقية Principe de contextualité والذي يعنى بدراسة الموضوع في إطار سياقه العام، وذلك بربط الجزء بالكل، فدراسة نص أدبي مثلاً تستلزم ربط العناصر المكونة له ببعضها البعض وذلك بإقامة علاقات بينها.

وأخيراً نصل إلى مبدأ التزامن والتعاقب، وقد انجر عن هذا المبدأ علم اللسان السانكروني والذي يختص "بدراسة العلاقات المنطقية والسيكولوجية، إذ تربط هذه العلاقات الحدود المتقاربة في الوجود (وتشكل نسقاً)، ارتباطاً يكون بالصفة التي تراها عليه الجماعة، ويدركها وعيها الجماعي (ضميرها الجمعي).

أما علم اللسان التواتري الدياكروني، فهو "يدرس العلاقات التي تربط الحدود المتعاقبة المتواترة، فلا يدركها الشعور الجماعي وهذه الحدود قد يحل بعضها محل بعض بدون أن تكون نسقاً فيما بينها"⁽¹⁶⁾.

إن مبدأ التزامن في الدراسات الألسنية يعني مراقبة "حركة العناصر فيما بينها في البنية. تتحرك العناصر في زمن واحد هو زمن نظامها، فإذا كان استمرار النظام يفترض استمرار البنية وثبات نسقها فإن التزامن يرتبط بهذا الثبات الذي يشكل حالة أي يرتبط بما هو متكون، وليس بما هو في مرحلة التكون، بما هو مكتمل وليس بما يكتمل، بما هو بنية و ليس بما سيصير بنية"⁽¹⁷⁾.

هذا يعني أن التزامن يهتم بما هو ثابت في النص الأدبي، يفرض الحايثة، ويقصي التاريخ، ولكننا لا نستطيع أن نفهم التزامن الا من خلال التعاقب في اطاره البنيوي والذي يعني "استمرار البنية نفسها التي تتعرض بسبب تخدم عنصر من عناصرها، لا تلبث هذه البنية نفسها أن تستعيد نظامها لتستمر به بعد دخول العنصر البديل فيه"⁽¹⁸⁾.

لقد توصل ليفي ستروس إلى "أن مهام علم اللغة (الفونولوجيا) Phonologie وعلم (الأنثروبولوجيا) Anthropologie واحد، لأنه يبحث في العلاقات التبادلية التي تشهد بالهوية التي يشترك فيها العلمان، ومعنى هذا أن القرابة كاللغة." ⁽¹⁹⁾ .

وقد توصل أيضا الى أن "الزواج لا يختلف عن اللغة فهو يقوم على التبادل والتواصل والحوار الخفي في طياته علاقات متشابكة، وإذا كانت اللغة تعني بعملية تبادل العلامات ففي الدراسة الأنثروبولوجية البنيوية للقرابة تكون بإزاء عملية "تبادل للنساء".

مما سبق، نلاحظ أن المنهج البنيوي يركز في تعامله مع الظاهرة الأدبية على "دراسة النص الأدبي في حد ذاته بغض النظر عن العوامل الأخرى الخارجية المحيطة به التي تجعله يذوب في محيطه النفسي أو محيطه الاجتماعي الخارجي"⁽²⁰⁾.

ولا غرو أن نجد النقد الجديد وهو يرفع مجموعة من الشعارات "التي كانت توازي تلك النتائج المنهجية التي توصلت إليها المدارس السابقة، وأخذ كل ذلك يتفاعل مع المناخ النقدي العالمي بصفة عامة حتى تشكلت في الخمسينات والستينات من هذا القرن المعالم البارزة للحركة البنيوية في اللغة والأنثروبولوجيا وعلم النفس والنقد الأدبي"⁽²¹⁾ .

وكان من نتائج مظاهر التلاقي الخصب بين الاتجاهات المعرفية المختلفة، لكي يتولد فكريا بنويو جديدا هو أن يدرك ليفي شتراوس أن المنهج التاريخي والتحليلي لدراسة البنى الاجتماعية غير كفيلا بظهور حقائق موضوعية، وأن النموذج اللغوي هو الأجدى في إشارة واضحة إلى ميلاد التحليل البنيوي، حيث قام هذا الأخير مع رومان جاكسون بتحليل بنيوي لسونيت الققط (نص شعري) للشاعر الفرنسي بودلير (Baudelaire) ليكون هذا العمل بمثابة الإعلان عن المولود الجديد والمؤرخ لبداية المنهج البنيوي في النقد العالمي الحديث. بالرغم من تعدد التيارات البنيوية إلا أنها كانت

تستقطب دائما نموذج اللغة، وبذلك كانت مادة اللغة هي الهدف في أعمال التحليل النقدي، "فالأدب لا يتكون من أفكار ولا مشاعر ولا آراء وإنما جسد لغوي ممثل للنص الأدبي، ومن ثم فإن أي مقارنة لتحليل هذا الأدب بمنهج علمي، كان من المفروض عليها أن تبدأ من منطلق اللغة، لا من منطلق ما وراء اللغة من فكر وميتافيزيقيا وأشياء أخرى لا ترتبط بالمادة المباشرة للأعمال الأدبية"⁽²²⁾.

وفقا للاعتبارات السابقة الذكر، تأسست البنيوية في النقد الأدبي، والتي قامت على مبادئ أساسية تتمثل أساسا في:

- إقصاء المحور التاريخي لأن اللجوء الى هذا الأخير لا يفي بالحاجة ولا يظهر الحقيقة الأدبية وليس بإمكانه إثبات هذه الحقيقة بإجراءات أمبيريقية (Empiriques).
- تفعيل المحور الآخر المقابل للمحور التاريخي وهو "البحث في الأدب كنظام في حد ذاته"⁽²³⁾، وذلك بالاهتمام بالعمل الأدبي من حيث إدراك العلاقات الداخلية وإظهار ترابطها وكيفية تركيبها وفق النمط الذي تؤدي به وظائفها الجمالية.

بصورة أخرى، إن الانصراف إلى أدبية الأدب أي إلى تلك "العناصر التي تجعل الأدب أدبا، تلك العناصر التي يمكن اعتبارها ماثلة في النص محددة لجنسه الفني ومكيفة لطبيعة تكوينه وموجهة لمدى كفاءته في أداء وظيفته الجمالية على وجه التحديد"⁽²⁴⁾؛ إنه الانتقال من السياق التاريخي الذي لم تعد من ضرورة لاستمرار الاستغراق فيه، ومن السياق الاجتماعي وضروراته الخارجية إلى السياق الجوهرية المتعلقة بالعمل الأدبي في طبيعته الشعرية ذات المفهوم الواسع الذي يحوي كل الأجناس الفنية.

مما سبق، نستنبط أن البنيوية لا تتعرض في دراساتها للأعمال الأدبية إلى تحليل طبيعة علاقة الأدب بالحياة لأنها حددت مجال عملها بأن لا علاقة لها بما هو ميتا لغوي: Métalinguistique.

فالمبدع سواء كان شاعرا أو روائيا أو مسرحيا، فانه يرى العالم ويكتب عنه لكن الناقد ليس له علاقة مباشرة بهذا العالم، فهو يرى العالم الإبداعي سواء كان شعرا أو نثرا، وبلغه النقد يحاول أن يقبض على لغة هذا النص، "فإذا كان موضوع الأدب هو العالم فإن موضوع النقد هو الأدب وبذلك لم يعد النقد مجالا لبروز إيديولوجيات أو نظريات مرتبطة بجوانب سياسية أو اجتماعية أو تاريخية"⁽²⁵⁾.

كان الهدف من النقد البنيوي الوقوف على الحقيقة التي "ينشدها المبدع بكتابته ، والناقد الأدبي بتحليله لهذه الكتابة"⁽²⁶⁾.

إن مهمة الناقد الأدبي في المنظور البنيوي هي ليست اختبار مدى مصداقية المبدع مع المجتمع، إنما مهمته الأساسية تكمن في اختبار لغة الكتابة الأدبية وبذلك يكون قد حدث التحول الجذري لنظرية الأدب، حيث أصبحت هذه الأخيرة (نظرية الأدب) تهتم بظواهر الإبداع الأدبي من حيث اللغة و الفن و الجمال.

وقد اتكأت البنيوية في مسارها التأسيسي على جدار الفلسفة التي تأسست عليها تيارات العلم الحديث وبالأخص **الفلسفة الظاهرية** التي تعتمد أساسا على حذف الجانب الما وراء لغوي أو ما يسمى بالميتافيزيقي الغيبي بلغة الفلسفة، وتركيزها على الجوانب العينية التي يمكن إدراكها ومعاينتها في العمل الأدبي.

ويعتبر علم اللغة بمثابة البنك الذي تستقي منه البنيوية مصطلحاتها وفي مقدمتها مصطلح البنية (**la structure**) التي تعرف بلغة الفلسفة بأنها "القانون الشامل الذي نستطيع من خلاله الكشف عن الشيء الذي نقوم بدراسته فهي عبارة عن نسق من التغيرات والتحويلات يخضع لثلاث خصائص هي: الكلية والتحويلات والتنظيم الذاتي، وكل تغير في أحد عناصر البنية يحدث بالضرورة تحولا في باقي العناصر التي تكونها"⁽²⁷⁾.

ولعل أول ناقد أعطى لمصطلح البنية المنطلق الأول هو رولان بارت (RolandesBarthe)

في دراساته ومقالاته النقدية أبرزها مؤلفه الموسوم الدرجة صفر في الكتابة: Le degré Zéro de l'écriture البنيوية منهج أدبي نقدي حديث أتى بمبادئ جديدة في التعامل مع الظاهرة الأدبية تحدث القطيعة مع الممارسات السابقة، بحيث جعلت الأدب حقلا للدراسة والتحليل العلمي كسائر الظواهر الاجتماعية الأخرى.

هذه الأفكار التأسيسية الجديدة جعلت المتعاملين بها من الباحثين والنقاد العرب يتحفظون بشكل كبير مقتصدين في تطبيقاتها على النصوص الأدبية العربية.

هوامش البحث:

1- صلاح فضل :مناهج النقد المعاصر ، دار الآفاق العربية ، القاهرة، 1996 ، ص 81 .

2- ن م س ، ص 81 .

3- ن م س ، ص 83.

- 4- جان ايف تادييه : النقد الأدبي في القرن العشرين ،ترجمة الدكتور قاسم المقداد، وزارة الثقافة ،دمشق ، ط 1993، ص23 .
- 5- ميشال زكريا :الألسنية ، علم اللغة الحديث ،المبادئ و الأعلام ،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع، ط 2، ص247.
- 6- الزواوي بغورة :المنهج البنوي ،بحث في الأصول و المبادئ و التطبيقات ،دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، ط 1، 2001.
- 7- ن م س، ،ص 46
- 8- ن م س ، ص 48.
- 9- ن م س ، ص 49
- 10- ن م س، ص 50
- 11- الزواوي بغورة : المنهج البنوي ، بحث في الأصول و المبادئ و التطبيقات ، م س ، ص 70.
- 12- ن م س ، ص 73 .
- 13- ن م س ، ص 123 .
- 14- ن م س ، ص 124 .
- 15- فريديلند دو سوسير: محاضرات في علم اللسان العام، ترجمة عبد القادر قنيني، مراجعة أحمد حبيبي، إفريقيا الشرق، 1987 ، ص 127 .
- 16- ن م س ، ص 127 .
- 17- الزواوي بغورة : المنهج البنوي ، بحث في الأصول و المبادئ و التطبيقات، م س، ص 126 .
- 18- ن م س، ص 127.
- 19- فريدة غيوة : اتجاهات وشخصيات في الفلسفة المعاصرة، شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، ط2002، ص156 .
- 20- ن م س ، ص 156 .
- 21- صلاح فضل : مناهج النقد المعاصر ، مرجع سابق ، ص 85.
- 22-(02) ن م س ، ص 86 .
- 23-(03) ن م س ، ص 86 .
- 24- صلاح فضل : مناهج النقد المعاصر ، م س ، ص 87 .
- 25- صلاح فضل :مناهج النقد المعاصر ، م س ، ص 88 .
- 26- ن م س ، ص 89 .
- 27- ن م س ، ص 90 .